مكانة عبد الله بن المبارك التركماني وسمات تصوفه
﴿ت: 181هـ﴾

إعـــــداد

د.هانئ محمد المهدي
المدرس بقسم مقارنة الأديان
كلية الدراسات الآسيوية العليا- جامعة الزقازيق

دورية الانسانيات. كلية الآداب. جامعة دمنهور
العدد الثانى و الستون - يناير -الجزء الثالث - لسنة 2024

مكانة عبد الله بن المبارك التركماني وسمات تصوفه (ت: 181هـ)

د.هانئ محمد المهدي

ملخص البحث

يتناول هذا البحث بيان مكانة عبد الله بن المبارك، وبيان أهم سمتين مهمتين من سمات التصوف الإسلامي التي تمثلت في شخصية هذا العالم العامل الزاهد، الذي ضرب لنا مثلا رائعا في السلوك العملي إلى الله تعالى، المعتمد على الفهم الدقيق للشريعة الإسلامية، والإدراك العميق لحقيقة العبادة، والتحلي بالأخلاق الفاضلة.

فبرهن لنا على أن العلم العميق والفهم الدقيق والأخلاق الحسنة تثمر في النهاية معرفة الله عز وجل والرغبة في لقائه سبحانه، والزهد في الدنيا.

فقد استطاع ابن المبارك أن يجعل من تصوفه مدرسة روحية لها منهجها الخاص، وسماتها المتميزة في السير إلى الله تعالى وإصلاح الحياة. وقد قصدت إبراز سمات تصوفه ليقتدى بأهل القرون الأولى اتباعا لسنة النبي صلى الله عليه وسلم.

فمن هو عبد الله بن المبارك؟ وما مكانته في التراث الروحي الإسلامي؟ وما مفهومه للحياة الروحية؟ وما أهم سماتها المميزة لديه؟ هذه أهم التساؤلات التي سيجيب عنها هذا البحث.

الكلمات المفتاحية: التصوف، عبد الله بن المبارك، الحياة الروحية. تركمانستان

Characteristics of the Sufism of Abdullah bin Al-Mubarak Al-Turkmani Composition

Dr. Hani Muhammad Al-Mahdi
Lecturer in the Department of Comparative Religions
Graduate School of Asian Studies
Zagazig University

Research Summary

This research deals with an explanation of the status of Abdullah bin Al-Mubarak, and an explanation of the two most important features of Islamic Sufism, which were represented in the character of this ascetic scholar and worker, who set for us a wonderful example of practical behavior towards God Almighty, based on an accurate understanding of Islamic law, and a deep awareness of the truth of worship. And have good morals.

He demonstrated to us that deep knowledge, precise understanding, and good morals ultimately result in knowledge of God Almighty, the desire to meet Him, Glory be to Him, and asceticism in this world.

Ibn Al-Mubarak was able to make his Sufism a spiritual school with its own approach and distinct characteristics in walking to God Almighty and reforming life. I intended to highlight the characteristics of his Sufism so that he could emulate the people of the first centuries, following the Sunnah of the Prophet, may God bless him and grant him peace.

key words: Sufism, Abdullah bin Al-Mubarak, spiritual life،

المقدمة

الكشف عن نموذج للتراث الروحي لأبناء جمهورية تركمانستان موطن الإمام عبد الله بن المبارك، والتي انفصلت عن الاتحاد السوفيتي السابق، وتتواصل الأكاديمية العلمية التركمانية الآن مع الباحثين العرب لمعاونتهم في الكشف عن تراث أجدادهم المحفوظ باللغة العربية للكتابة عنه ونشره. ●

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد،

صار للتصوف أثر فاعل في الحياة بكل جوانبها الفكرية والعلمية والتعليمية والسياسية والاجتماعية والدعوية، ولهذا دعت الحاجة إلى ضرورة معرفة سمات التصوف الحقيقي؛ ليقتدي بها صوفية هذا الزمان في سلوكهم العملي في الدعوة والسير إلى الله تعالى.

وتتجلى سمات التصوف الحقيقي الملتزم بالقرآن والسنة في صوفية القرون الهجرية الثلاثة الأولى. ومن صوفية القرن الثاني الهجري الذين كان لهم أثر بالغ في إثراء الحياة الروحية في العالم الإسلامي، وإعطاء نموذج متكامل للتصوف الحقيقي عبد الله بن المبارك التركماني، ذلكم العالم الرباني، الموصوف بالعلم والخشية، والزهد والورع، والتواضع والإخلاص، والفقه والعبادة، والشجاعة والكرم، وما شئت فقل من صفات الخير، فقد شاءت له الأقدار أن يوجد ابن المبارك في خير الأزمان قاطبة، كما أشار إلى ذلك النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "خَيْرُكُمْ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ. ... الحديث"[1] إشارة منه صلى الله عليه وسلم إلى الاقتداء بمن وجدوا في تلك القرون الفاضلة، والسير على نهجهم.

فقد استطاع ابن المبارك أن يجعل من تصوفه مدرسة روحية لها منهجها الخاص، وسماتها المتميزة في السير إلى الله تعالى وإصلاح الحياة. وقد قصدت إبراز سمات تصوفه ليُقتدَى بأهل القرون الأولى اتباعا لسنة النبي صلى الله عليه وسلم.

هدف البحث وأهميته

الكشف عن نموذج لمدرسة التراث الروحي بجمهورية تركمانستان المنفصلة عن الاتحاد السوفيتي السابق، حيث أعلنت أكاديمية العلوم التركمانية عن حاجتها الماسة

---

(1) حديث صحيح رواه البخاري في الجامع الصحيح المختصر، باب ما يُحذَرُ من زهْرَةِ الدُّنيَا والتَّنَافُسِ فيها.
نشر: دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت – 1407 – 1987 ، الطبعة : الثالثة ، تحقيق : د. مصطفى ديب البغا
ج 5 / 2361 . رقم الحديث: 6064

للكشف عن هذا التراث كهوية دينية وثقافية لأبناء الشعب التركماني يتمسكون بها في مواجهة تحديات العولمة الجارفة.[2]

أسئلة البحث

من هو عبد الله بن المبارك؟ وما مكانته في التراث الروحي الإسلامي؟ وما مفهومه للحياة الروحية؟ وما أهم سماتها المميزة لديه؟.

الدراسات السابقة

هناك عدة دراسات عن عبد الله بن المبارك تناولت حياته من الناحية الأدبية والفنية عن حياته وشعره، ودراسات تناولته كمحدث وناقد، فاهتمت بتخريج أحاديثه وآثاره الواردة في كتابه (الزهد)، ودراسات تناولت جهاده ودعوته إلى الله تعالى.

ومن هذه الدراسات: دراسة بعنوان " شعر عبد الله بن المبارك دراسة موضوعية فنية"[3]، ودراسة بعنوان " عبد الله بن المبارك والمعاني التربوية في شعره" [4]، ودراسة بعنوان،"الإمام عبد الله بن المبارك حياته وشعره"[5] ودراسة بعنوان" عبد الله بن المبارك محدثات وناقدا"[6]، ودراسة بعنوان" الأحاديث الواردة في كتاب الزهد للإمام عبد الله بن المبارك "[7] ودراسة بعنوان "الإمام عبد الله بن المبارك وجهوده في الدعوة إلى الله"[8]

الجديد الذي يقدمه البحث

الجديد الذي سيقدمه هذا البحث، بيان موقع ومكانة عبد الله بن المبارك في التراث الروحي الإسلامي (التصوف)، ومفهومه للحياة الروحية، وبيان أهم سمات تصوفه ومدى توافقها مع القرآن الكريم والسنة النبوية.

منهج البحث: يعتمد البحث المنهج التاريخي التحليلي، حيث سأقوم بالتأريخ لحياة عبد الله بن المبارك ونشأته ومكانته، ثم أحلل النصوص لاستنباط فهمه للحياة الروحية وبيان سماتها لديه.

---

[2] انظر مجلة أكاديمية العلوم التركمانية. المؤتمر الدولي بجمهورية تركمانستان بعنوان " الشعب التركماني وتطوير ثقافة العالم " في ٢٣ فبراير ٢٠١١م والذي أعلن فيه عن التواصل مع الباحثين العرب لمعاونتهم في الكشف عن التراث التركماني المحفوظ باللغة العربية لتحقيق ونشره.

[3] علي غانم سعد الله حسين. شعر عبد الله بن المبارك دراسة موضوعية فنية. رسالة ماجستير بجامعة الموصل عام ٢٠٠٢ نشر دار المنظومة.

[4] وليد أحمد علي مساعدة، عبد الله بن المبارك والمعاني التربوية في شعره. رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، عام ١٩٩٣م، نشر دار المنظومة.

[5] يوسف رجاء صديق. الإمام عبد الله بن المبارك حياته وشعره. رسالة ماجستير، جامعة أم درمان عام ٢٠٠٣. نشر دار المنظومة.

[6] احمد محمد سعيد، عبد الله بن المبارك ناقدا ومحدثا. رسالة ماجستير، جامعة الملك عبد العزيز عام ١٩٨١، نشر دار المنظومة.

[7] إدريس، منال إبراهيم فضل، الأحاديث الواردة في كتاب الزهد للإمام عبد الله بن المبارك. رسالة ماجستير، جامعة أم درمان الإسلامية، عامز٢٠٠٣، نشر دار المنظومة.

[8] محمد محمد أحمد، الإمام عبد الله بن المبارك وجهوده في الدعوة إلى الله، رسالة ماجستير، جامعة أم درمان الإسلامية، عام ٢٠٠٧، نشر دار المنظومة.

خطة البحث

مقدمة البحث، وتشمل: هدف البحث وتساؤلاته والدراسات السابقة.

المبحث الأول: **نشأة ومكانة عبد الله بن المبارك**

المبحث الثاني: سمات تصوف عبد الله بن المبارك

الخاتمة: وتشتمل على نتائج البحث وتوصياته.

المبحث الأول: **مولد عبد الله بن المبارك ونشأته ومكانته**

مولد عبد الله بن المبارك:

كان والد عبد الله بن المبارك "المبارك" يعمل بستانيا، وكان رجلا ورعا، فقد طلب منه مولاه رمانة حامضة، فجاءه برمانة حلوة، فقال له: أما تعرف الحلو من الحامض؟! قال: لا. قال: ولم؟ قال: لأنك لم تأذن لي فيه، فعظم قدره عند مولاه، وكانت له بنت خطبت كثيرا. فقال له: يا مبارك من ترى نزوج هذه البنت؟ فقال مبارك: الجاهلية كانوا يزوجون للحسب، واليهود للمال، والنصارى للجمال، وهذه الأمة للدين. فأعجبه عقله. وقال لأمها: مالها زوج غيره. فتزوجها، فولدت له ابنه عبد الله سنة (128 هـ). [9]

طلبه للعلم

بدأ عبد الله بن المبارك في طلب العلم وهو ابن بضع عشرة سنة، ورحل سنة إحدى وأربعين ومائة لطلب العلم، فلقي التابعين، وأكثر الترحال والتطواف لبلوغ الغاية في طلب العلم والحج والجهاد والتجارة، التقي بكثير من المحدثين، أشهرهم الأوزاعي، والثوري، ومالك، وشعبة، ومن في طبقتهم. وصنف التصانيف النافعة، حتى قيل عنه في زمنه: الأئمة أربعة: مالك، والثوري، وحماد بن زيد، وابن المبارك. وقيل عنه: إنه حمل علم خراسان وأهل العراق وأهل الحجاز وأهل اليمن وأهل الشام.[10] وتوفي سنة (181هـ)، وهو يبتسم، ويقرأ قول الله تعالى:" لمثل هذا فليعمل العاملون: (الصافات:61).[11] وقد حزن عليه الخليفة هارون الرشيد، وقال:" مات سيد العلماء"،

(9)عبد الحي العكري الحنبلي. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، نشر: دار بن كثير – دمشق – 1406هـ، الطبعة: ط1، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، ج1/ص296

(10) شمس الدين بن عثمان الذهبي. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، نشر: دار الكتاب العربي – لبنان/ بيروت – 1407هـ – 1987م، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. عمر عبد السلام. 220/12

(11)الغزالي أبو حامد. إحياء علوم الدين، نشر: دار المعرفة – .481/4

وقال لوزيره الفضل: ائذن للناس أن يعذرونا في عبد الله بن المبارك، فتعجب وزيره الفضل، فقال له الرشيد: ويحك. إن عبد الله هو الذي يقول:

الله يدفع بالسلطان معضلة عن ديننا رحمة منه ورضوانا

لولا الأئمة لم يأمن لنا سبيل وكان أضعفنا نهبا لأقوانا.[12]

ودفن بمدينة "هيت" على نهر الفرات من محافظة الأنبار بالعراق.

وقد مر على قبره الوزير أبو القاسم علي بن الحسن المغربي، وقال:

مررت بقبر ابن المبارك زائرا فأوسعني وعظا وليس بناطق

وقد كنت بالعلم الذي في جوانحي غنيا وبالشيب الذي في مفارقي

ولكن أرى الذكرى تنبه غافلا إذ هي جاءت من رجال الحقائق[13]

مكانته:

صارت لعبد الله بن المبارك العابد التركماني الأول بعد رحلاته في العالم الإسلامي مكانة عظيمة فاقت مكانة الخليفة هارون الرشيد آنذاك، فقد أصبح محدث المشرق والمغرب، وذاع صيته بين الناس واجتمعوا عليه أكثر من اجتماعهم على هارون الرشيد خليفة المسلمين. فيُذكر أن هارون الرشيد زار مدينة "الرقة"، وحدث وقتها أن أقبل عبد الله بن المبارك من خراسان إلى "الرقة" أيضا. فانجفل الناس خلف عبد الله ابن المبارك، وتقطعت النعال وارتفعت الغبرة، وأشرفت زوجة هارون الرشيد من برج من قصرها، فلما رأت الناس، قالت: ما هذا؟ قالوا: عالم من أهل خراسان قدم الرقة يقال له: عبد الله بن المبارك. فقالت:هذا والله الملك، لا ملك هارون الذي لا يجمع الناس إلا بشُرَط وأعوان.[14]

وقد أجمع العلماء على قبوله وإمامته وعدله. فقد قال عنه الإمام أحمد بن حنبل:" لم يكن في زمان ابن المبارك أطلب منه للعلم" وقال شعبة:" ما قدم علينا مثله" جمع العلم والفقه والأدب والنحو واللغة والشعر وفصاحة العرب وقيام الليل والعبادة"، وقال عنه الفضيل:" ورب هذا البيت ما رأت عيناي مثل ابن المبارك" ، وقيل عنه:

إذا سار عبدالله من مرو ليلة فقد سار منها نورها وجمالها

---

(12) أبو نعيم الأصفهاني. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. طبعة دار الكتب العلمية. بيروت 164/8

(13)كمال الدين بن أبي جرادة، بغية الطلب في تاريخ حلب، نشر: دار الفكر، تحقيق: د. سهيل زكار ج6/ص2544

(14)عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج، صفة الصفوة. نشر: دار المعرفة – بيروت – 1399 – 1979، الطبعة: الثانية، تحقيق: محمود فاخوري – د. محمد رواس قلعه جي 136/4. أبو العباس شمس الدين بن خلكان. وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان، نشر: دار الثقافة – لبنان، تحقيق: إحسان عباس 33/3

إذا ذكر الأحبار في كل بلدة فهم أنجم فيها وأنت هلالها [15]

وكان رأسا في العلم ورأسا في الذكاء ورأسا في الشجاعة والجهاد ورأسا في الكرم.[16]

وقال عنه سفيان بن عيينة:" إني لأشتهي من عمري كله أن أكون سنة واحدة مثل عبد الله بن المبارك، فما أقدر أن أكون و لا ثلاثة أيام". وعن عمران بن موسى الطرسوسي قال: جاء رجل فسأل سفيان الثوري عن مسألة. فقال له: من أين أنت؟ قال: من أهل المشرق. قال: أوليس عندكم أعلم أهل المشرق؟ قال: ومن هو يا أبا عبد الله؟ قال: عبد الله بن المبارك. قال: و هو أعلم أهل المشرق؟ قال: نعم. وأهل المغرب. وقال ابن عيينة نظرت في أمر الصحابة وأمر ابن المبارك، فما رأيت لهم عليه فضلا إلا بصحبتهم النبي صلى الله عليه وسلم وغزوهم معه.[17] وقيل عنه:" ابن المبارك في المحدثين مثل أمير المؤمنين في الناس، حتى قيل:" كل حديث لا يعرفه ابن المبارك فنحن منه براء.[18]

ومن عظم مكانته أطلق عليه البعض لقب "فقيه العرب" قال محمد بن المعتمر. قلت لأبي: من فقيه العرب؟ فقال: سفيان الثوري. فلما مات سفيان الثوري. قلت لأبي: من فقيه العرب؟ قال: عبد الله بن المبارك.[19]

"اجتمع جماعات من أصحاب ابن المبارك فقالوا تعالوا نعد خصال ابن المبارك من أبواب الخير فقالوا جمع العلم والفقه والأدب والنحو واللغة والزهد والشعر والفصاحة والورع والأنصاف وقيام الليل والعبادة والشدة في رأيه وقلة الكلام فيما لا يعنيه وقلة الخلاف على أصحابه"[20]

مؤلفاته:

---

(15) محمد بن عثمان الذهبي. أبو عبد الله. سير أعلام النبلاء، نشر: مؤسسة الرسالة – بيروت – 1413، الطبعة: التاسعة، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ، محمد نعيم العرقسوسي: ج8/ص391

(16) عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، نشر: دار بن كثير – دمشق – 1406هـ، الطبعة: ط1، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، محمود الأرناؤوط. 297/1

(17) عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج، صفة الصفوة. نشر: دار المعرفة – بيروت – 1399 – 1979، الطبعة: الثانية، تحقيق: محمود فاخوري – د. محمد رواس قلعه جي ج4/ص138

(18) الذهبي: تاريخ الإسلام للذهبي.220/12

(19) أبو نعيم الأصفهاني. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء. 163/8.

[20] محي الدين بن شرف النووي. تهذيب الأسماء واللغات، نشر : دار الفكر – بيروت – 1996 ، الطبعة : الأولى ، تحقيق : مكتب البحوث والدراسات. ج 1 / 267

ذكر أصحاب كتب الطبقات والمؤلفات، كابن سعد وحاجي خليفة، أن عبد الله ابن المبارك صنف كتبا كثيرة في أنواع العلم، منها كتاب الجهاد، وكتاب الفتاوى، والسنن والفقه، ومن أشهر كتبه كتاب الزهد والرقائق الذي روى فيه ألفين وثلاثة وستين حديثا. كما روى له أبو نعيم في كتابه حلية الأولياء، وغيره أحاديث في القرآن والإسلام والإيمان والآخرة والعلم والصلاة والصدقة والصوم والحج والذكر والدعاء والأخلاق والزهد وغيرها.

نشأة عبد الله بن المبارك الصوفية ودوره في نشر التصوف في آسيا الوسطى:

تلقى عبد الله بن المبارك تربيته الصوفية على يد مشايخ صوفية العراق والشام، وأدرك جماعة من التابعين، منهم: هشام بن عروة، وإسماعيل بن أبي خالد، والأعمش، وسليمان التيمي، وحميد الطويل، وعبد الله بن عون، وخالد الحذاء، ويحي بن سعيد الأنصاري، وموسى بن عقبة، وآخرين. ومن شيوخه: الربيع بين أنس الخراساني، وحماد بن وبد، وعاصم بن سليمان الأحول، وعوف الأعرابي. كما تلقى علمه من آثار الصحابة والتابعين، "قيل لابن المبارك إذا صليت معنا لم لا تجلس معنا قال أذهب مع الصحابة والتابعين قلنا له ومن أين الصحابة والتابعون قال أذهب أنظر في علمي فأدرك آثارهم وأعمالهم".[21]

وبعد رحلات ابن المبارك في بلاد الشام والعراق وعودته إلى بلاد خراسان وما وراء النهر (من مناطق آسيا الوسطى) نقل التصوف مع من عاصروه من أئمة التصوف في زمانه، مثل: وإبراهيم بن أدهم (ت162هـ)، وأبو حفص النيسابوري (ت270)، والفضيل بن عياض (ت187هـ) وغيرهم ممن كانوا يرحلون إلى البصرة وبغداد، ومنهم من تتلمذ على يد سيد الطائفة ببغداد (الجنيد البغدادي.ت:297هـ)، ثم يعودون إلى خراسان؛ لينقلوا إليها سمات الحياة الروحية كما تعلموها ومارسوها في المشرق العربي.[22]

ولم يكتف هؤلاء بنقل النفحات الروحية إلى بلادهم فقط، بل تميزوا فيها عن أهل المشرق، وقد شهد لهم الإمام الجنيد بذلك، حين قال في حق أبناء خراسان وموقعهم

---

[21] أبو نعيم الأصبهاني. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، نشر : دار الكتاب العربي – بيروت – 1405 ، الطبعة : الرابعة. ج 8 / 164

(22) د. النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام . ط: 8 دار المعارف: ص: 384 وما بعدها.

من الجانب الروحي:" أعطي أهل بغداد الشطح والعبارة، وأهل خراسان القلب والسخاء"[23]

وسار على منوالهم من أتوا بعدهم من صوفية خراسان وما وراء النهر، مثل: ابن خفيف الشيرازي (ت371هـ)، والحكيم الترمذي (ت320هـ)، وأبو القاسم القشيري (ت465هـ) والهجويري (ت465هـ)،وأبو عبد الرحمن السلمي (ت412هـ) وأبو حامد الغزالي (ت505هـ)، وغيرهم ممن كانوا يرحلون إلى المشرق متنقلين من بغداد إلى مكة، وإلى الشام ومصر والبصرة، يأخذون عن علمائها وزهادها، ثم يعودون إلى بلادهم متأثرين بتلك الرحلات التي أخذت الصبغة العلمية والروحية معا، فنشروا في بلادهم ما تعلموه وما تأثروا به.[24]

ومن مظاهر ذلك التأثر أنهم أقاموا حلقات ومجالس العلم، وأسسوا الزوايا والخانقاوات والرباطات على غرار ما رأوه في المشرق العربي، حيث كانت الرباطات (الربط) منتشرة على سواحل الشام وحدود الدولة الإسلامية منذ عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان المسلمون يرابطون فيها لغرض الجهاد في سبيل الله. وهذا يؤكد أن نواة التصوف الإسلامي قد نقلت من المحيط العربي إلى خراسان، وهذا رد على من يزعم أن التصوف نشأ في خراسان بناء على نزعة قومية، أي النزعة الآرية[25].

فمنهم من جعل داره للعلم والتربية الروحية كعبد الله بن المبارك في مرو، وعبد الرحمن السلمي والقشيري والهروي والغزالي، وكان لهذا أثر كبير في نشر التصوف في منطقة آسيا الوسطى. وقد أخذت هذه الحلقات وتلك المجالس معنى الطريقة التي كانت آنذاك عبارة عن (منهج عملي يوجه السالك أو المريد في مجالات الفكر والشعور والعمل، بحيث ينتهي به من خلال المقامات المتوالية المتعاقبة وما يرتبط بها من تجارب نفسية متجددة تسمى" الأحوال" إلى الاطلاع على الحقائق الإلهية).[26]

المبحث الثاني:

سمات تصوف عبد الله بن المبارك:

(23) الذهبي: سير أعلام النبلاء: ط:مؤسسة الرسالة سنة 1996. 66/14

(24) الباحث: الفكر الصوفي في خراسان وما وراء النهر في القرنين الرابع والخامس الهجريين وما بعدها. رسالة ماجستير بكلية دار العلوم جامعة القاهرة سنة1999م بإشراف أ.د. مصطفى حلمي ص42

(25) البلاذري:. فتوح البلدان ط دار الكتب العلمية بيروت.ص:180، د. عبد الباري الطاهر: مظاهر الحياة الفكرية والاجتماعية في خراسان وما وراء النهر في القرنين الثالث والرابع الهجريين رسالة دكتواره بدار العلوم قسم التاريخ الإسلامي. سنة:1993م. ص301

(26) أ.د. حسن الشافعي: فصول في التصوف سنة: 1991م. ص:236

يتسم تصوف عبد الله بن المبارك بسمتين أساسيتين، جعلت من تصوفه تصوفا عمليا له أثره البالغ في تهذيب النفوس وصيانة العقول وحفظها من الانحراف الأخلاقي والتطرف الفكري، وهاتان السمتان هما: الفهم العميق لمفهوم الدين والعبادة، والتحلي بالأخلاق الفاضلة.

السمة الأولى: فقه الأولويات والموازنات:

لم يكن الدين لدى ابن المبارك مجموعة من الشعائر يمارسها المرء المسلم دون وعي أو تدبر وفهم لجوهر هذه الشعائر؛ لهذا أعلى عبد الله ابن المبارك من قيمة العقل ودوره في تدبر مقاصد الدين وأمور العبادة والاعتقاد، وهذا راجع لانشغاله بحمع الحديث الشريف وفهمه وتدبره له، حيث جمع بين الفقه وبين التعبد، وهذا من أهم ما يميز تصوفه.

قال حبيب الجلاب سألت ابن المبارك ما خير ما أعطي الإنسان؟ قال:" غريزة عقل. قلت: فإن لم يكن؟ قال: حسن أدب. قلت: فإن لم يكن؟ قال: أخ شفيق يستشيره. قلت: فإن لم يكن؟ قال: صمت طويل. قلت: فإن لم يكن؟ قال: موت عاجل".[27]

لقد دعا ابن المبارك إلى التمعن والتدبر في آيات القرآن الكريم، والحياة به، فلم يكن القرآن عنده مجرد كتاب للتعبد بتلاوته وحفظه فقط، وإنما منهج للحياة، ووسيلة للتفكر والتدبر. فقد قال له رجل: قرأت البارحة القرآن في ركعة. فرد عليه ابن المبارك. ولكني أعرف رجلا لم يزل البارحة يردد {أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ} [التكاثر : 1] إلى الصبح ما قدر أن يتجاوزها؛ لاستغراقه في تدبرها، يعني نفسه.[28]

كما كان ابن المبارك يتميز **بفقه الموازنة** بين الواجبات والفروض الدينية، فكان يرى أن السهر على الثغور وحراستها من الأعداء أفضل من الاعتكاف للعبادة في الحرمين الشريفين، بل يعتبر تلك العبادة لعبا. فلقد أرسل رسالة في ذلك لصديقه الفضيل بن عياض، وكان من كبار العباد والزهاد آنذاك. يقول فيها:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا — لعلمت أنك في العبادة تلعب

من كان يخضب خده بدموعه — فنحورنا بدمائنا تتخضب

---

(27) محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله، سير أعلام النبلاء .دار النشر: مؤسسة الرسالة – بيروت – 1413، ج8/ص397

(28) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، دار النشر: دار الكتاب العربي – لبنان/ بيروت – 1407هـ – 1987م، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمريتاريخ الإسلام: 224/12

أو كان يتعب خيله في باطل فخيولنا يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم ونحن عبيرنا رهج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي وغبار خيل الله في أنف أمريء ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا ليس الشهيد بميت لا يكذب

فلما قرأها الفضيل ذرفت عيناه. ثم قال: صدق أبو عبد الرحمن ونصح.(29) وهذا يدل على فهم ابن المبارك العميق لقول الله تعالى:" أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللّهِ" (التوبة:19)

فما أحوج صوفية زماننا إلى هذا الفهم العميق في الموازنة بين التعبد والنهوض لحراسة الملة والأمة على كافة ثغورها المادية والمعنوية.

كما كان عبد الله بن المبارك يتمتع **بفقه الأولويات** الذي يفتقده الآن الكثير من المسلمين. فقد خرج مرة إلى الحج فاجتاز ببعض البلاد، فمات طائر معهم، فأمر بإلقائه على مزبلة هناك، وسار أصحابه أمامه وتخلف هو وراءهم، فلما مر بالمزبلة، إذا جارية قد خرجت من دار قريبة منها فأخذت ذلك الطائر الميت ثم لفته وأسرعت به إلى الدار، فجاء فسألها عن أمرها وأخذها الميتة. فقالت: أنا وأخي هنا ليس لنا شيء إلا هذا الإزار وليس لنا قوت إلا ما يلقى على هذه المزبلة، وقد حلت لنا الميتة منذ أيام. وكان أبونا له مال فظلم وأخذ ماله وقتل، فأمر ابن المبارك برد الأحمال، وقال لوكيله: كم معك من النفقة؟ قال: ألف دينار. فقال: عد منها عشرين دينارا تكفينا إلى مرو وأعطها الباقي. فهذا أفضل من حجنا في هذا العام ثم رجع.(30)

بهذا ضرب لنا ابن المبارك أروع الأمثلة العملية في الفهم العميق لأولويات الدين، بأن رعاية الفقراء أولى من الإنفاق لأداء فريضة الحج مرارا وتكرارا..

حتى عند ممارسته لشعائر الإسلام يعطي لها مفهوما عميقا غير متوقع. فمثلا عندما يشرب المسلمون ماء زمزم في الحج والعمرة يدعو كل مسلم بما شاء من السعة في الرزق أو الصحة أو البركة في الأولاد والأعمال، أو العلم النافع أو غيرها مما ينفع الناس في دنياهم، أما عبد الله بن المبارك فالأمر عنده مختلف.

(29) السابق: ج12/ص240

(30) إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء، البداية والنهاية. نشر: مكتبة المعارف – بيروت. ج10/ص178

فعن سويد بن سعيد رضي الله عنه قال: رأيت عبد الله بن المبارك بمكة أتى ماء زمزم واستسقى منه شربة، ثم استقبل الكعبة. فقال: اللهم إن ابن أبي الموالي حدثنا عن محمد بن المنكدر عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ماء زمزم لما شرب له. وها أنا ذا أشربه لعطش يوم القيامة ثم شرب.[31] فهو هنا يعلمنا أن نستفيد من دنيانا لتعمير وتأمين أخرانا.

وبهذا يعطي عبد الله بن المبارك للعبادة لذة وطعما خاصا. فعن وهيب بن الورد أنه سأل عبد الله بن المبارك ، أيجد طعم العبادة من يعصي الإله؟ قال: لا. ولا من يهم بمعصية.[32]

ومع علو قدر عبد الله بن المبارك في العبادة إلا أنه لم يغتر بها، وكان يتهم نفسه بالتقصير فيها.

قال ابن المبارك:" قدمت مكة فإذا الناس قد قحطوا من المطر وهم يستسقون في المسجد الحرام، وكنت في الناس مما يلي باب بني شيبة إذ أقبل غلام أسود عليه قطعتا خيش قد اتزر بإحداهما وألقى الأخرى على عاتقه، فصار في موضع خفي إلى جانبي، فسمعته يقول: إلهي أَخَلَقَت الوجوهَ كثرةُ الذنوب ومساوئُ الأعمال وقد منعتنا غيث السماء لتؤدب الخليقة بذلك، فأسألك يا حليما ذا أناة يا من لا يعرف عباده منه إلا الجميل اسقهم الساعة الساعة. قال ابن المبارك: فلم يزل يقول الساعة الساعة حتى استوت بالغمام وأقبل المطر من كل مكان، وجلس مكانه يسبح، وأخذت أبكي إذ قام فاتبعته حتى عرفت موضعه، فجئت إلى الفضيل بن عياض، فقال لي: مالي أراك كئيبا. فقلت: سبقنا إليه غيرنا. فتولاه دوننا. فقال: وما ذاك؟ فقصصت عليه القصة. فصاح وسقط وقال: ويحك يا ابن المبارك. خذني إليه. فقلت: قد ضاق الوقت وسأبحث عن شأنه، فلما كان من الغد صليت الغداة وخرجت أريد الموضع، فإذا شيخ على الباب قد بسط له وهو جالس، فلما رآني عرفني. وقال مرحبا بك يا أبا عبد الرحمن. ما حاجتك؟ فقلت له: احتجت إلى غلام أسود. قال نعم عندي عدة، فأختر أيهم شئت، فصاح يا غلام! فخرج غلام جلد. فقال: هذا محمود العاقبة أرضاه لك. فقلت: ليس هذا حاجتي. فما زال يخرج واحدا بعد واحد حتى أخرج إليّ الغلام. فلما

(31) المنذري. الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت – 1417، الطبعة: الأولى، تحقيق: إبراهيم شمس الدينج2/ص136

(32) عبد الرحمن أبو الفرج ابن الجوزي .صفة الصفوة. 222/2. مرجع سابق.

بصرت به بدرت عيناي. فقال: هذا هو؟ قلت: نعم. قال: ليس إلى بيعه سبيل. قلت: ولم؟ قال قد تبركت بموضعه من هذه الدار. فقال: إن ممشاك عندي كبير خذه بما شئت. قال: فاشتريته فأخذت نحو دار الفضيل بن عياض فمشيت ساعة. فقال لي: يا مولاي! فقلت: لبيك. قال: لا تقل لي لبيك. فإن العبد أولى أن يلبي من المولى، قلت: ما حاجتك يا حبيبي؟ قال أنا ضعيف البدن لا أطيق الخدمة، وقد كان لك في غيري سعة، وقد أخرج إليك من هو أجلد مني. فقلت لا يراني الله أستخدمك، ولكن أشتري لك منزلا وأزوجك وأخدمك أنا بنفسي. قال: فبكى. فقلت له: ما يبكيك؟: قال أنت لم تفعل هذا إلا وقد رأيت بعض صلاتي بالله تعالى، وإلا فلم اخترتني من بين أولئك الغلمان؟ فقلت له: ليس بك حاجة إلى هذا. فقال لي سألتك بالله إلا ما أخبرتني. فقلت له بإجابة دعوتك. فقال لي إني أحسبك إن شاء الله تعالى رجلا صالحا. إن لله عز وجل خيرة من خلقه لا يكشف شأنهم إلا لمن أحب من عباده ولا يظهر عليهم إلا من قد ارتضى، ثم التفت إلي وقال: يا أبا عبد الرحمن هل من حاجة؟ قلت: ولم؟ قال: لأني أريد الانصراف. قلت: إلى أين؟ قال: إلى الآخرة. قلت: لا تفعل. دعني أسر بك. فقال لي: إنما كانت تطيب الحياة حيث كانت المعاملة بيني وبينه تعالى، فأما إذ اطلعت عليها أنت فسيطلع عليها غيرك، فلا حاجة لي في ذلك، ثم خر لوجهه فجعل يقول: إلهي اقبضني الساعة الساعة الساعة. فدنوت منه فإذا هو قد مات. فوالله ما ذكرته قط إلا طال حزني وصغرت الدنيا في عيني. رحمه الله .[33]

وكان عبد الله بن المبارك مع هذا الفهم العميق والدقيق يتمتع بالاجتهاد وعدم التقليد والإنصاف وقلة الخلاف، وترك الكلام فيما لا يعنيه. فلم يتهمه أحد على فكره أو رأيه، وهذا هو المسلم المطلوب الذي لا يُصنَّف على فئة معينة، بل يقبله الجميع. قال عنه الحافظ الدارمي: "كان ابن المبارك من أوعية العلم يجتهد ولا يقلد"[34]

السمة الثانية: التحلي بالأخلاق الفاضلة:

لم يكن الدين يعني لدى ابن المبارك مجموعة من الشعائر التعبدية يمارسها كل مسلم منفردا منعزلا عن المجتمع، وإنما كان يعني عنده الانخراط في الحياة بالعمل والنصح للناس، وإعانتهم في أمور حياتهم، والتحلي بحسن الخلق.

(33) ابن الجوزي. صفة الصفوة ج2/ص269 وما بعدها.

(34) صلاح الدين الصفدي، الوافي بالوفيات. نشر: دار إحياء التراث – بيروت – 1420هـ– 2000م، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى.127/17، والذهبي: تاريخ الإسلام.225/12.

مفهوم حسن الخلق عند ابن المبارك

فهم عبد الله بن المبارك الدين على أنه حسن الخلق، وهذا بالطبع يتفق مع ما جاء به القرآن الكريم ومع سنة النبي محمد صلى الله عليه وسلم: ومفهوم حسن الخلق عند ابن المبارك ، ألا يكون في المرء صفة من سوء الخلق. يقول:" قال لو أن رجلاً اتقى مائة شيء ولم يتق شيئاً واحداً لم يكن من المتقين، ولو تورع عن مائة شيء سوى شيء لم يكن من الورعين، ومن كانت فيه خلة من الجهل كان من الجاهلين. أما سمعت الله تعالى يقول لنوح عليه السلام في شأن ابنه{إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [هود : 46] وفي موضع آخر يقول حسن الخلق هو:" طلاقة الوجه، وبذل المعروف، وكف الأذى".[35]

اهتمامه بالأدب

ولشدة اهتمامه بالأدب و حسن الخلق نجده يبذل من أجله الأموال الكثيرة والجهد والوقت لتحصيله. يقول:" أنفقت في الحديث أربعين ألفا، وفي الأدب ستين ألفا، وليت ما أنفقته في الحديث أنفقته في الأدب". وقال:" تعلموا العلم شهرا والأدب شهرين" وقد أنشد في ذلك شعرا يقول فيه:

أدبت نفسي فما وجدت لها ... من بعد تقوى الإله من أدب

إن كان من فضة كلامك يا ... نفس فإن السكوت من ذهب [36]

وكان عبد الله بن المبارك يقدم الأدب على العلم، يقول:" إذا وصف لي رجل له علم الأولين والآخرين لا أتأسف على فوت لقائه، وإذا سمعت رجلا له أدب النفس أتمنى لقاءه وأتأسف على فوته". وقال:" لا ينبل الرجل بنوع من العلم ما لم يزين علمه بالأدب" وقال:" طلبت العلم فأصبت منه شيئا، وطلبت الأدب فإذا أهله قد ماتوا".[37]

أهم الأخلاق الحسنة التي اتصف بها عبد الله بن المبارك و دعا إليها:

– **طلب العلم واحترام العلماء:** لم يكن عبد الله بن المبارك بالمتنسك الجاهل، وإنما سعى ورحل في طلب العلم ليعبد الله على علم، فكان لا يسأم من مواصلة التعليم

(35) النووي .رياض الصالحين.136/1

(36) أبو بكر ابن أبي الدنيا. الصمت وآداب اللسان، نشر: دار الكتاب العربي – بيروت – 1410، الطبعة: الأولى، تحقيق: أبو إسحاق الحويني ج1/ص312، وابن الجوزي .صفة الصفوة.145/4، وأبو عبد الله ياقوت الحموي. معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت – 1411 هـ – 1991م، الطبعة: الأولى.45/1

(37) الإمام أبي عبد الله محمد بن مفلح المقدسي. الآداب الشرعية والمنح المرعية، نشر: مؤسسة الرسالة – بيروت – 1417هـ – 1996م، الطبعة: الثانية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط / عمر القيام .523،522/3.

والتعلم، حتى قال عنه الإمام أحمد بن حنبل: " لم يكن في زمان ابن المبارك أطلب للعلم منه" وقال شعبة: ما قدم علينا مثله. وما رأيت أحدا أطلب للعلم من ابن المبارك . وقد سئل إلى متى تكتب هذا الحديث؟ فقال: "لعل الكلمة التي أنتفع بها ما كتبتها بعد".[38]

وأنه كان يسعى لمعرفة الله عز وجل. يقول:" أهل الدنيا خرجوا من الدنيا ولم يتطعموا أطيب ما فيها، قيل له: وما أطيب ما فيها: قال: المعرفة بالله عز وجل". وقال:" طلبنا العلم للدنيا، فدلنا على ترك الدنيا".[39]

وكان ابن المبارك دقيقا في طلب العلم، وكان له منهج متميز في تلقيه. فكان يحرص على توثيق علمه وفهمه جيدا. فكان يعتمد على الإسناد في توثيق علمه، فقال: "الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء".[40] وكان يقول:" أول العلم النية، ثم الاستماع، ثم الفهم، ثم العمل به، ثم الحفظ، ثم النشر.[41]

كذلك كان شديد التقدير للعلماء، وذكر فضلهم ولطلاب العلم أيضا. يقول عن شيوخه: "لولا أن الله أعانني بأبي حنيفة وسفيان كنت كسائر الناس".[42]

وقال:" من استخف بالعلماء ذهبت آخرته، ومن استخف بالأمراء ذهبت دنياه، ومن استخف بالإخوان ذهبت مروءته".[43]

وفوق هذا نجده ينفق جل ماله على طلاب العلم وعلى زملائه من العلماء. عوتب ابن المبارك فيما يفرق من الأموال في البلدان ولا يفعل في "مرو"[44]. فقال: إني أعرف مكان قوم لهم فضل وصدق، طلبوا الحديث فأحسنوا الطلب يحتاج الناس إليهم ،احتاجوا. فإن تركتهم ضاع علمهم، وإن أعَنَّاهُم بَثّوا العلم، ولا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم[45] ومع تقديره للعلماء وطلاب العلم، كان كذلك شديد التقدير للعلم، فلا يضعه في غير أهله. لدرجة أنه كان يذل نفسه ولا يذل علمه. فقد جاءه أحد وجهاء بني هاشم ليسمع منه. فأبى أن يحدثه. فقال الهاشمي لغلامه: يا غلام قم. أبو عبد

(38) الذهبي. سير أعلام النبلاء. 407/8

(39) ابن الجوزي. صفة الصفوة .138/4

(40) محمد بن عبد الهادي أبو عبد الله. الصارم المنكي في الرد على السبكي، نشر: مكتبة التوعية الإسلامية، تحقيق: إسماعيل بن محمد الأنصاري .375/1.

(41) القاضي أبي عبد الله الصيمري. أخبار أبي حنيفة.141/1

(42) الذهبي: سير أعلام النبلاء.398/6

(43) الذهبي:تاريخ الإسلام.232/12

[44] مدينة "مرو" التركمانية.

(45) السابق: تاريخ الإسلام ج12/ص234

الرحمن لا يرى أن يحدثنا. فلما قام ليركب، جاء ابن المبارك ليمسك بركابه. فقال: يا أبا عبد الرحمن لا ترى أن تحدثني وتمسك بركابي فقال: أذل لك بدني ولا أذل لك الحديث"[46]

وعندما قدم البصرة، دخل عليه أحد الطلاب، فسأله أن يحدثه، فأبى وقال: أنت صبي.[47] وهذا يدل على فهمه العالي لحديث النبي صلى الله عليه وسلم الذي يوصي بوضع العلم في أهله.

- التواضع:

وتلك صفة ظاهرة في شخص عبد الله بن المبارك وأحواله. فكان يقول:" ما رأيت نفسي في مجلس أذل منها في مجلس أبي حنيفة".[48] وبينما هو في الكوفة يُقرأ عليه كتاب "المناسك" انتهى إلى حديث. و فيه قال: عبد الله. و به نأخذ. فقال: من كتب هذا من قولي؟ قلت: الكاتب الذي كتبه. فلم يزل يحكه بيده حتى درس. ثم قال: و من أنا حتى يكتب قولي. وزوج النضر بن محمد ولده. ودعي بن المبارك فلما جاء. قام ابن المبارك ليخدم الناس. فأبى النضر أن يدعه و حلف عليه حتى جلس. وأراد مرة أن يشرب، فدنا من سقاية يشرب الناس منها، ولم يعرفوه، فزاحموه ودفعوه، فلما خرج قال: ما العيش إلا هكذا حيث لم نُعرف ولم نُوقر. (49)

وكان ابن المبارك يرى نفسه أقل من الصالحين السابقين عليه، فيقول:

"إن الصالحين فيما مضى كانت أنفسهم تواتيهم على الخير عفوا وإن أنفسنا لا تكاد تواتينا إلا على كره ينبغي لنا أن نكرهها"(50) وصحبه أبو علي الروذباري في الطريق إلى مكة، قال: "فلما دخلنا البادية قال: تكون الأمير أم أكون أنا؟ قلت: بل أنت. قال: فعليك بالسمع والطاعة. فأخذ المخلاة ووضعها على عاتقه. فقلت: دعني أحمل. فقال: أنا الأمير أم أنت؟ قلت: أنت. فمكثنا ذات ليلة إذ أخذ المطر ينزل فأخذ الكساء فأظلني وترك نفسه إلى الصباح. فوددت أني أمت ولم أقل كن أميرا. فلما

---

(46) السابق: تاريخ الإسلام ج12/ص226

(47) كمال أبو جرادة. بغية الطلب في تاريخ حلب.2511/6

(48) القاضي أبي عبد الله الصيمري. أخبار أبي حنيفة وأصحابه، نشر: عالم الكتب – بيروت – 1405هـ – 1985م، الطبعة: الثانية . 139/1

(49) ابن الجوزي. صفة الصفوة ج4/ص135

(50) السابق: ج4/ص145

أردت الافتراق قال يا أبا علي إذا صحبت إنسانا فاصحبه هكذا". [51] ومن كلامه:" الرفيع من رفعه الله بطاعته والوضيع من وضعه الله بمعصيته" وقال أحب الصالحين ولست منهم وأبغض الطالحين وأنا منهم".[52] ومن مظاهر التواضع عنده أيضا الاستغناء عن الأغنياء" قيل لابن المبارك: ما التواضع؟ قال: التكبر على الأغنياء"[53]

- الورع:

والورع يعني: التحري الشديد للحلال ، وعدم أخذ شيء فيه شبهة، وأن يترك الشخص مسافة كبيرة من الحلال بينه وبين الحرام. وتلك كانت صفة ملموسة في عبد الله بن المبارك. فكان يقول:" لأن أرد درهما من شبهة أحب إلي من أن أتصدق بمائة ألف و مائة ألف حتى بلغ ستمائة ألف"[54]

ومما يدل على ورعه أيضا أنه كان في منزله حمام طيارة. فقال ابن المبارك:" قد كنا ننتفع بفراخ هذه الحمام، فليس ننتفع بها اليوم. قلت: و لم ذلك؟ قال: اختلطت بها حمام غيرها، فتزاوجت بها فنحن نكره أن ننتفع بشيء من فراخها من أجل ذلك"[55]

- الإخلاص:

كان عبد الله بن المبارك شديد الإخلاص في عبادته لله عز وجل، فكان يصدق الله عز وجل في الخفاء والعلن، وكان بينه وبين الله عز وجل حال لا يعلمه إلا الله.

فعن القاسم بن محمد قال: كنا نسافر مع ابن المبارك فكثيرا ما كان يخطر ببالي فأقول في نفسي: بأي شيء فضل هذا الرجل علينا حتى اشتهر في الناس هذه الشهرة؟! إن كان يصلي إنا نصلي، ولئن كان يصوم إنا لنصوم و إن كان يغزو فإنا لنغزو و إن كان يحج إنا لنحج. قال: فكنا في بعض مسيرنا في طريق الشام ليلة نتعشى في بيت إذ طفئ السراج، فقام بعضنا فأخذ السراج و خرج يستصبح، فمكث هنيهة ثم جاء بالسراج فنظرت إلى وجه ابن المبارك و لحيته قد ابتلت من الدموع، فقلت في نفسي: بهذه الخشية فضل هذا الرجل علينا، و لعله حين فقد السراج فصار

---

(51) عبد القادر بن أبي الوفاء محمد بن أبي الوفاء القرشي. الجواهر المضية في طبقات الحنفية، نشر: مير محمد كتب خانه – كراتشي طبقات الحنفية ج2/ص529

(52) السابق: ج2/ص531

(53) ابن الجوزي ج4/ص139

(54) ابن أبي الدنيا:/ الورع 119/1

(55) صفة الصفوة ج4/ص136

إلى الظلمة ذكر القيامة. وقال عنه الإمام أحمد بن حنبل. قال:" ما رفع الله ابن المبارك إلا بخبيئة كانت له".[56]

وقد سئل عبد الله بن المبارك عن قول الله تعالى: {فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً} [الكهف : 110]قال:" من أراد النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى خالقه فليعمل عملا صالحا ولا يخبر به أحدا."[57]

– الزهد:

لا يعني الزهد عند عبد الله بن المبارك أن تلبس الغليظ من الثياب وتأكل الخشن من الطعام، وإنما الزهد عنده أن لا تتملك الدنيا من قلبك، وأن تكون في يدك، بمعنى أن لا يستعبدك المال، وأن تستخدمه في مرضاة الله تعالى، ولا تحزن على فوت ما فيها أو تفرح لإقبالها. فلم يكن الزهد في نظره رفضا للثراء. فقد كان عبد الله بن المبارك يأكل اللحم المشوي مع الفالوذج (الحلوى) ويأخذ زينته من الملابس، امتثالا لقول الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ} [البقرة : 172]، وقوله تعالى{يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} [الأعراف : 31]. فمفهوم الزهد عنده يعني: الثقة بالله مع محبة الفقر.[58]. وكان ابن المبارك يكره من يلبس الصوف؛ لكونه علامة على الاشتهار بالزهد.[59] والدنيا في نظره مرحلة للآخرة. فقد فسر قول الله تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ} [القصص : 77]، أي اعمل في الدنيا لآخرتك.[60]

فالزهاد في نظره هم الملوك الحقيقيون، وأن الزاهد هو السلطان الحقيقي. يقول:" سلطان الزهد أعظم من سلطان الرعية؛ لأن سلطان الرعية لا يجمع الناس إلا بالعصا، والزاهد ينفر من الناس فيتبعونه". وقد قيل له: تأمرنا بالزهد والتعلل، ونراك تأتي بالبضائع إلى البلد الحرام كيف هذا؟! قال: إنما أفعل ذلك لأصون به وجهي

---

(56) صفة الصفوة ج4/ص145،ص146

(57) حادي الأرواح ج1/ص235

(58) ابن القيم. مدارج السالكين. 11/2

(59) عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج، تلبيس إبليس. نشر: دار الكتاب العربي – بيروت – 1405 – 1985، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. السيد الجميلي. 243/1

(60) أبو القاسم الأصفهاني. محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، نشر: دار القلم – بيروت – 1420هـ– 1999م، تحقيق: عمر الطباع. 395/1

وأكرم به عرضي وأستعين به على الطاعة، لا أرى لله حقاً إلا سارعت إليه حتى أقوم به. فقيل له: ما أحسن ذا إن تم".[61]

- الكرم:

اشتهر عبد الله بن المبارك بالبذل والكرم ، ومن مظاهر ذلك : إطعام الطعام، وسداد الديون عن المدينين، والإنفاق على الحجاج والمجاهدين. فقد كانت له تجارة واسعة ينفق على الفقراء في السنة مائة ألف درهم. ومن الأمثلة على ذلك من حياته:

كان إذا عزم على الحج، يقول لأصحابه: من عزم منكم في هذا العام على الحج فليأت بنفقته حتى أنفق عليه، فكان يأخذ منهم نفقاتهم ويكتب على كل صرة اسم صاحبها ويجعلها في صندوق، ثم يخرج بهم في أوسع ما يكون من النفقات والركوب وحسن الخلق والتيسير عليهم، فإذا قضوا حجتهم اشترى الهدايا، فإذا رجعوا إلى بلادهم، بعث من أثناء الطريق إلى بيوتهم من يصلحها ويجددها، فإذا وصلوا إلى البلد عمل وليمة بعد قدومهم ودعاهم فأكلوا وكساهم، ثم دعا بذلك الصندوق فيفتحه، ويخرج منه تلك الصرر ثم يرد عليهم أموالهم. وكانت سفرته تحمل على بعير وحدها وفيها من أنواع المأكول من اللحم والدجاج والحلوى وغير ذلك، ثم يطعم الناس وهو الدهر صائم في الحر الشديد. وسأله مرة سائل فأعطاه درهما. فقال له بعض أصحابه: إن هؤلاء يأكلون الشواء والفالوذج. وقد كان يكفيه قطعة. فقال: والله ما ظننت أنه يأكل إلا البقل والخبز. فأما إذا كان يأكل الفالوذج والشواء فإنه لا يكفيه درهم ثم أمر بعض غلمانه. فقال: رده وادفع إليه عشرة دراهم.[62] وقال إسماعيل بن عياش:" لقد حدثني أصحابي أنهم صحبوه من مصر إلى مكة فكان يطعمهم الخبيص وهو الدهر صائم"(63)

- الشجاعة:

اتسم عبد الله بن المبارك بالشجاعة، فكان يغزو عاما ويحج عاما. فقد كان عابدا مجاهدا، ومما روي عنه في جهاده؛ قال أبو حاتم الرازي: "سمعت عبد الله بن سليمان يقول: كنا في سرية مع ابن المبارك في بلاد الروم فصادفنا العدو فلما التقى الصفان خرج رجل من العدو فدعا إلى المبارزة، فخرج إليه رجل فطارده ساعة فطعنه فقتله، ثم

---

(61) الذهبي: تاريخ الإسلام ج12/ص235

(62) ابن كثير: البداية والنهاية ج10/ص1

(63) عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي أبو الفرج. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، نشر: دار صادر – بيروت – 1358، الطبعة: الأولى ج9/ص59

خرج آخر فقتله، ثم خرج آخر فقتله، ثم دعا إلى المبارزة، فخرج إليه رجل فطارده ساعة فقتله، فازدحم عليه الناس، فكنت فيمن ازدحم عليه فإذا هو يلثم وجهه بكمه فأخذت بطرف كمه فمددته فإذا هو عبد الله بن المبارك".[64]

وقال عبد الله بن المبارك:" تكبيرة على حائط طرسوس تعدل فرسا في سبيل الله، ومن حمل على فرس في سبيل الله حمله الله على ناقة من نوق الجنة، وكان ابن المبارك قد قدم طرسوس فأقام بها وبالمصيصة غازيا سنين".[65]

وأنشد في ذلك:

إني أشير على العزاب إن قبلوا بأن يكون لهم مثوى بطرسوس
الدرا واسعة بالأهل رافقة غيظ العدو وأجر غير محسوس
قوم إذا نابهم في الحرب نائبة حلوا الرباط فلم يلووا على كوس[66]

ومع حبه للرباط في سبيل الله إلا أنه يرى أن المرابطة على الحق أولى، فقد سأله رجل عن الرباط، فقال: "رابط بنفسك على الحق حتى تقيمها على الحق، فذلك أفضل الرباط"[67]

– أدب النصيحة:

لا تعني الحياة الروحية عند عبد الله بن المبارك العزلة عن الناس، والخلوة بالنفس. وإنما كان يخالطهم لنصحهم، ولا يخوض فيما يخوضون فيه من باطل. ففي تفسيره لمعنى العزلة قال: " أن يكون مع القوم فإن خاضوا في ذكر الله فخُض معهم وإن خاضوا في غير ذلك فاسكت".(68)

كما كان يرى وجوب مخالطة الناس للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فقد فسر قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [المائدة : 105]

قال:" إن هذه الآية آكد آية في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن معنى "عليكم أنفسكم" احفظوها والزموا صلاحها بأن يعظ بعضكم بعضا ويرغبه في الخيرات وينفره عن القبائح والسيئات. لا يضركم ضلال من ضل إذا اهتديتم فأمرتم

---

(64) ابن الجوزي. المنتظم ج9/ص59

(65) أبو جرادة. بغية الطلب في تاريخ حلب ج1/ص202

(66) السابق: ج1/ص203

(67) أبو نعيم. حلية الأولياء.8،171.

(68) ابن أبي الدنيا. الصمت وآداب اللسان ج1/ص62.

بالمعروف ونهيتم عن المنكر، فإنكم خرجتم عن عهدة التكليف. كما قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا} [النساء : 84] (69)

وقال عنه الفضيل:" قال ما رأت عيناي أنصح لهذه الأمة من عبد الله بن المبارك"(70).

ومع ذلك كان له وقت مخصص للعزلة مع نفسه لتقويمها وانفرادها بالله عز وجل. فقد قيل له: ألا تستوحش من الجلوس وحدك ، فقال: كيف أستوحش وأنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه.(71)

ولم تكن مشكلة عبد الله بن المبارك في إعطاء النصيحة، وإنما كانت في من ينتصح، فقد سأله رجل: هل بقي من ينصح؟ فقال: فهل بقي من يقبل؟! وقد عطس رجل عند ابن المبارك، فلم يحمد الله، فقال ابن المبارك: إيش يقول العاطس إذا عطس؟ قال الرجل: يقول الحمد لله. فقال له: يرحمك الله.(72)

هذه الصفات الأخلاقية التي اتسم بها ابن المبارك، قد اتسم بها أيضا أوائل علماء الصوفية ومن بعده، غير أنه تميز بتأصيله لكل خلق، وأنه يتحلى به ويمارسه ويطبقه تطبيقا رائعا ينم عن فهم عميق لقيمة هذا الخلق وأهميته، كاشفا عن سر كل خلق وحكمته.

(69) محمد عبد السلام خضر الشقيري. السنن والمبتدعات المتعلقة بالأذكار والصلوات. نشر: دار الفكر – الطبعة: تحقيق: المصحح: محمد خليل هراس ج1/ص403

(70) عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج، صفة الصفوة. نشر: دار المعرفة – بيروت – 1399 – 1979، الطبعة: الثانية، تحقيق: محمود فاخوري – د.محمد رواس قلعه جي ج4/ص136.

(71) الذهبي: تاريخ الإسلام.236/12.

(72) أبو نعيم . حلية الأولياء. 170/8

الخاتمة

كشف هذا البحث عن مكانة عبد الله بن المبارك في التراث الصوفي، وبين سمتين مهمتين من سمات التصوف الإسلامي تمثلت في شخصية هذا العالم، الذي ضرب لنا مثلا رائعا في السلوك العملي إلى الله تعالى، المعتمد على الفهم الدقيق للشريعة الإسلامية، والإدراك العميق لحقيقة العبادة، والتحلي بالأخلاق الفاضلة.

فبرهن لنا على أن العلم العميق والفهم الدقيق والأخلاق الحسنة تثمر في النهاية معرفة الله عز وجل والرغبة في لقائه سبحانه، والزهد في الدنيا؛ لهذا كان ابن المبارك يردد دائما: " أكثركم علما ينبغي أن يكون أشدكم خوفا واستعدادا للموت ولما بعد الموت." وكان يقول: جمعنا العلم للدنيا فدلنا على ترك الدنيا.[73]

توصية:

يوصي الباحث بضرورة الاهتمام بالتراث الروحي الإسلامي من مصادره الأساسية في القرون الفاضلة، والعمل على نشر قيمه الروحية لمواجهة طغيان المادية على أهل زماننا، واعتبار هذا التصوف قاعدة للقيم العامة التي ينبغي نشرها في المجتمعات المعاصرة؛ لتستعيد الحياة الروحية مكانتها كما كانت في تلك القرون السابقة، فلن يَصلُح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

(73) ابن الجوزي. صفة الصفوة. 145/4

أهم المصادر والمراجع

- ابن أبي الدنيا. أبو بكر. الصمت وآداب اللسان، نشر: دار الكتاب العربي – بيروت – 1410، الطبعة: الأولى، تحقيق: أبو إسحاق الحويني .
- الأصفهاني: أبو نعيم. **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، نشر : دار الكتاب العربي – بيروت – 1405، الطبعة : الرابعة.**
- البخاري (محمد بن إسماعيل) : الجامع الصحيح المختصر، نشر: دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت – 1407 – 1987 ، الطبعة : الثالثة ، تحقيق : د. مصطفى ديب البغا.
- البلاذري:. فتوح البلدان ط دار الكتب العلمية بيروت.
- ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج، تلبيس إبليس. نشر: دار الكتاب العربي – بيروت – 1405 – 1985، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. السيد الجميلي.
- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، نشر: دار صادر – بيروت – 1358، الطبعة: الأولى
- أ.د. حسن الشافعي: فصول في التصوف سنة: 1991م.
- الذهبي : شمس الدين بن عثمان. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، نشر: دار الكتاب العربي – لبنان/ بيروت – 1407هـ – 1987م، الطبعة: الأولى، تحقيق: د. عمر عبد السلام.
- سير أعلام النبلاء، نشر: مؤسسة الرسالة – بيروت – 1413، الطبعة: التاسعة، تحقيق: شعيب الأرناؤوط ، محمد نعيم
- الصيمري. القاضي أبي عبد الله. أخبار أبي حنيفة وأصحابه، نشر: عالم الكتب – بيروت – 1405هـ – 1985م، الطبعة: الثانية .
- د. عبد الباري الطاهر: مظاهر الحياة الفكرية والاجتماعية في خراسان وما وراء النهر في القرنين الثالث والرابع الهجريين رسالة دكتواره بدار العلوم قسم التاريخ الإسلامي. سنة:1993م.
- عبد الحي العكري الحنبلي. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، نشر: دار بن كثير – دمشق – 1406هـ، الطبعة: ط1، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط.
- عبد القادر بن أبي الوفاء محمد بن أبي الوفاء القرشي. الجواهر المضية في طبقات الحنفية، نشر: مير محمد كتب خانه – كراتشي طبقات الحنفية .
- الغزالي أبو حامد. إحياء علوم الدين، نشر: دار المعرفة –

- كمال الدين بن أبي جرادة، بغية الطلب في تاريخ حلب، نشر: دار الفكر، تحقيق: د. سهيل زكار .
- ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج، صفة الصفوة. نشر: دار المعرفة – بيروت – 1399 – 1979، الطبعة: الثانية، تحقيق: محمود فاخوري – د.محمد رواس قلعه جي .
- ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين. وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان، نشر: دار الثقافة – لبنان، تحقيق: إحسان عباس.
- الصفدي . صلاح الدين ، الوافي بالوفيات. نشر: دار إحياء التراث – بيروت – 1420هـ– 2000م، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى.
- أبو القاسم الأصفهاني. محاضرات الأدباء ومحاورات الشعرء والبلغاء، نشر: دار القلم – بيروت – 1420هـ– 1999م، تحقيق: عمر الطباع.
- أبو القاسم الأصفهاني. محاضرات الأدباء ومحاورات الشعرء والبلغاء، نشر: دار القلم – بيروت – 1420هـ– 1999م، تحقيق: عمر الطباع.
- ابن كثير القرشي أبو الفداء، البداية والنهاية. نشر: مكتبة المعارف – بيروت.
- محمد عبد السلام خضر الشقيري. السنن والمبتدعات المتعلقة بالأذكار والصلوات. نشر: دار الفكر – الطبعة: تحقيق: المصحح: محمد خليل هراس.
- المقدسي. الإمام أبي عبد الله محمد بن مفلح. الآداب الشرعية والمنح المرعية، نشر: مؤسسة الرسالة – بيروت – 1417هـ – 1996م، الطبعة: الثانية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط / عمر القيام .
- المنذري. الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت – 1417، الطبعة: الأولى، تحقيق: إبراهيم شمس الدينج.
- د. النشار علي سامي: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام . ط: 8 دار المعارف.
- النووي: محي الدين بن شرف. تهذيب الأسماء واللغات، نشر : دار الفكر – بيروت – 1996 ، الطبعة : الأولى ، تحقيق : مكتب البحوث والدراسات.
- هانئ المهدي: الفكر الصوفي في خراسان وما وراء النهر في القرنين الرابع والخامس الهجريين وما بعدها. رسالة ماجستير بكلية دار العلوم جامعة القاهرة سنة1999م بإشراف أ.د. مصطفى حلمي .
- ياقوت الحموي . أبو عبد الله. معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، نشر: دار الكتب العلمية – بيروت – 1411 هـ – 1991م، الطبعة: الأولى.